سقوط غرناطة (896هـ /1492م)
" دراسة تحليلية "

د. شامخ زكريا علاونة.
قسم التاريخ، جامعة القدس المفتوحة، فلسطين. *salawna@qou.edu*

تاريخ الإرسال: 09/ 02/ 2019؛ تاريخ القبول: 27/ 11/ 2019؛ تاريخ النشر: 30/ 12/ 2019.

الملخص:

تناول البحث العوامل الداخلية والخارجية التي أدت إلى سقوط آخر الممالك الإسلامية في الأندلس، وهي غالباً العوامل المتحكمة في حركة التاريخ، وبين البحث طبيعة الصراع بين آخر ملوك بني نصر فيما بينهم من حيث أسبابه وأحداثه ونتائجه بصورةٍ شموليةٍ، وجاء البحث على صراع القبلية العصبية بين العرب والبربر من جهة ثانية. وكذلك تخاذل أبي عبد الله الصغير أمام الملك القشتالي فرناندو، وكانت نتيجة هذا السقوط اقتلاع المسلمين من الأندلس كدولة إسلامية أولاً، ودين إسلامي ثانياً من خلال تهجيرهم وحرقهم ونفيهم وتنصيرهم بواسطة محاكم التفتيش، وأظهر البحث حجم الكارثة الإنسانية التي حلت بمجتمع بأكمله وبتنوعه الثقافي والديني والعمراني والحضاري، ومحو وإزالة تراثه الإنساني والفكري الذي لا زالت بعض أثاره باقية سواء كانت المادية او الثقافية على أرض الأندلس من عمائر أو مخطوطات التي أحرقت غالبيتها خاصة التي تتعلق بعلوم الدين من قبل الكاردينال خمينيث مسؤول محاكم التفتيش في غرناطة في ميدان باب الرملة من غرناطة ولم يسلم منها إلا الكتب العلمية، وكان ذلك في سنة (905هـ/1499م).

الكلمات المفتاحية: بلاد الاندلس؛ غرناطة؛ بني نصر؛ محاكم التفتيش.

Abstract:

This study dealt with the internal and external factors that led to the fall of the last Islamic kingdoms in Andalusia, which are often the factors controlling the movement of history. The study also dealt with the nature of the conflict and its consequences and its results in a comprehensive manner among the last kings of Bani Nasr among them, and the tribal conflict between Arabs and Berbers, As well as the failure of Abu Abdullah al- in front of the Castilian king Fernando. The result of this fall was the uprooting of Muslims from Andalusia as an Islamic state first, and a second religion through their displacement, burning, exile and victory by the Inquisition. The research also pointed to the magnitude of the human catastrophe, Cultural, religious, urban and cultural diversity, and the erasure and removal of its human and intellectual heritage, which still has some lingering effects, whether material or cultural, on the land of Andalusia. Bab al-Ramla from Granada, and only the scientific books were delivered from it, and that was in the year (905 AH / 1499 AD).

Keywords: Country of Andalusia; Granada; Bani Nasr; Inquisition.

مقدمة:

قامت مملكة غرناطة على يد مؤسس الدولة النصرية محمد بن يوسف بن نصر الذي يعرف بابن الأحمر، بعد أن استولت الممالك الإسبانية على عدد كبير من المدن والحصون في شمال وغرب الأندلس، ونتيجة لذلك هُجّر سكانها إلى جنوب الأندلس، ولهذا أصبحت غرناطة وأقاليمها عاصمة الدولة النصرية (629هـ -897هـ/1232م -1492م).

نتيجة للتطورات الداخلية التي تتمثل بالصراع على تسلم مقاليد السلطة السياسية داخل البيت النصري من جهة، وإصرار الممالك الإسبانية وبدعم من البابوية على تنصير وانهاء الوجود الإسلامي في شبة الجزيرة الإيبيرية من جهة ثانية، سقطت الدولة الإسلامية بعد صراع طويل الأمد دفع الموريسكيون ثمنه بانتهاء مملكتهم وتهجيرهم وتجريدهم من ممتلكاتهم وحرمانهم من ثقافتهم

ولغتهم ودينهم وعاداتهم وقيمهم وتقاليدهم، وأصدرت المراسيم وعقدت محاكم التفتيش للتنكيل بهم وملاحقتهم ومراقبتهم وإصدار الأحكام الجائرة بحقهم.

قسمت الدراسة إلى قسمين: القسم الأول تناول الأسباب الداخلية لسقوط آخر الممالك الإسلامية في الأندلس التي تمثلت في الصراع بين أبي الحسن علي بن سعد النصري ووالده، وصراع أبي الحسن علي بن سعد النصري وأخية عبد الله الزغل، وصراع أبي الحسن مع أبنائه أبو عبد الله وأبي الحجاج يوسف، وصراع العم عبد الله الزغل مع أبن أخيه أبي عبد الله الصغير، والقسم الثاني الذي جاء على حرب الاستنزاف التي قادها الملكيين الكاثوليكيين الملك فرناندو ملك مملكة أرجون وإيزبيلا ملكة ممملكة قشتالة ضد مملكة غرناطة، وغياب التخطيط والوحدة والاستعداد لمخطط الممالك الأسبانية.

ترجع أهمية الدراسة كونها جاءت لتحليل طبيعة الصراع الداخلي داخل البيت النصري، وكيف استنزفت الحروب الداخلية مقدرات وقوى وخيرات مملكة غرناطة، والأخطاء الاستراتيجية التي وقع فيها ملوك الدولة النصرية في إدارة صراعهم مع الممالك الإسبانية بعدم الاستناد إلى عمقهم الإسلامي في بلاد المغرب الإسلامي لا بطلب النجدات من الدولة العثمانية البعيدة نوعاً ما من الناحية الجغرافية واللوجستية، كما ترجع أهمية الدراسة في كونها أظهرت أسباب دخول بعض ملوك الدولة النصرية في معاهدات مع مملكة غرناطة مكرهين أحياناً ومتخاذلين أحياناً أخرى حسب اعتقادهم أن قشتالة ستعمل على إدامة حكمهم وحمايته في صراعهم فيما بينهم.

اتبع الباحث المنهج التاريخي في تحليل الأحداث التاريخية وربطها مع بعضها البعض حسب ما جاءت في المصادر والمراجع التاريخية وخاصة المراجع الإسبانية التي تناولت سقوط مملكة غرناطة، حيث تم تقديم البحث بملخص ومقدمة بالإضافة إلى اقسام البحث الرئيسة، وفي نهاية البحث سجلت نتائج البحث وقائمة المصادر والمراجع العربية والإسبانية.

أولاً: بدايات سقوط المملكة:

يُعد سقوط مملكة غرناطة عام(896ه/ 1492م)، نهايةَ لحقبة تاريخية امتدت لمدة ثمانية قرون، وكان لهذا السقوط أسبابه الداخلية والخارجية، وأنصافاً للحق والتاريخ، فإن الصراع الداخلي على ولاية العرش كان سبباً مباشراً ساهم في سقوط وانحدار المملكة نحو نهايتها، وقد كان سقوط المملكة بيد الإسبان نهاية الإسلام في جنوب أوروبا أولاً وشبه الجزيرة الإيبيرية ثانياً، وهذا السقوط بمعناه الجيو- سياسي فهو سقوط دولة أولاً ودين ثانياً، ولم ينعم المسلمون بعد توقيع معاهدة تسليم مدينة غرناطة (بتاريخ 21/ 1 / 897 هـ - الموافق 25/ 1491/11م) (حتامله، 2000: 636) سوى عدة سنوات مما نصت عليه الاتفاقية التي حفظت لهم حرية دينهم ولغتهم وممتلكاتهم وغيرها من حقوق، حيث ما لبث أن تغير كل شيء في أقل من عشر سنوات بضغط من البابوية ورجال الدين، وهُجر غالبية المسلمين من المدن الإسبانية إلى ناحية العدوة(ابن خلدون، ع. 2001: 466) وبعضهم هُجر إلى ريف غرناطة والقرى الشمالية للمدينة خاصة ما يعرف بمنطقة البشرات (*Alpujarrs*) (حتامله، 1999: 255) وباتجاه المدن والقرى والمناطق الشمالية الشرقية مثل بلنسية في شمال شرق اسبانيا وإلى الأرياف النائية(حتامله، 1999: 301).

ولعدم وجود قوة إسلامية تحافظ على حقوق المسلمين لم تُنفذ المعاهدات العلنية التي وقعها آخر ملوك بني نصر أبو عبد الله الصغير مع الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا، فشكلت محاكم التفتيش، وسلبت الأموال، وأحرق المسلمون ضمن محاكم التفتيش، ومنعت اللغة العربية، وحولت المساجد إلى كنائس، وحولت الممتلكات العامة إلى خاصة، وذاق المسلمون شتى أصناف التعذيب والحرمان والعنصرية فاق ما يتخيله المرء على طول فترة تاريخ العصور الوسطى والتاريخ الحديث والمعاصر(الصلابي، ع. 2007: 196). حتى وصل الأمر إلى هدم مظاهر الحضارة المعمارية الإسلامية في المدينة فقد صدرت الأوامر عام

1535م بهدم جميع الحمامات في المدينة وذلك لمحو ثقافة الوضوء والنظافة المرتبطة بالطهارة والصلاة(حتامله، 2000: 673).

وبسبب ضعف وصراع دويلات المغرب الإسلامي فيما بينها، وخاصة زوال دولة بني مرين في القرن العاشر الهجري (15م) التي كانت أمل الناصريين الأول في نجدتهم، هذا بالإضافة إلى تيقن الممالك المسيحية في اسبانيا أنه بدون وحدتها لا يمكن القضاء على الدولة النصرية، أما على الجانب الشرقي من أوروبا أوغلت الدولة العثمانية بفتوحاتها تجاه تلك الدول، فكان الرد الأوروبي موحداً بين الشرق والغرب على رأى واحد وهو الخلاص من المسلمين في النقطة الأضعف في هذا الصراع ألا وهي الأندلس، ولكن المتتبع لتاريخ إسبانيا الإسلامية يستنتج أنه لولا صراع المسلمين فيما بينهم لما تمكن الإسبان من السيطرة على مدينة واحدة في الأندلس لحصانة مدنها وقصباتها، التي كانت تعتمد على نظام الأسوار والأبراج والقلاع والحصون، وهو نظام عسكري معقد يقوم على حماية تلك المدن كافة، حيث كان يطلق على الأندلس بلاد الحصون والقلاع لكثرة القلاع والحصون فيها، إضافة إلى كثرة عدد سكانها المسلمين خاصة بعد سقوط غالبية مدن الأندلس وهجرة غالبية سكانها إلى قرى وحصون غرناطة(Cuello,2004:11).

ثانياً: استراتيجية الممالك الإسبانية ضد مملكة غرناطة:

لقد عمل الملوك الإسبان خطة استراتيجية تقوم على انتزاع القلاع والأبراج المحيطة بمدينة غرناطة، وترتب عن سقوط تلك القلاع هجرة القرى المحيطة بها وسكان القلاع أيضاً إلى المدينة ذاتها، وبالتالي قد نجح الإسبان في تجميع المسلمين في المدينة وذلك لسببين أولها: لمحاربة المسلمين في بقعة جغرافية أو مدينة واحدة كمقدمة لدحرهم بشكل نهائي من الأندلس، وثانياً السيطرة على موارد تلك القرى بأراضيها الزراعية وشحن تلك القلاع بالجنود الإسبان لمهاجمة مدينة غرناطة، وبسقوط غرناطة فضل بعض الغرناطيين البقاء في المدينة في ظل عقد معاهدة تسليم غرناطة والتي كانت تنص على صيانة حقوق وملكيات عامة الناس

من المسلمين (حتامله، 2000: 59) ، وعلى الرغم من عملية التنصير التي قادها الملوك الإسبان تباعاً، فقد ظل الموريسكيون(67: 1992 ,De Plaza) أوفياء لدينهم ولعقيدتهم، ولم تستطع كل القوانين منعهم من التكلم باللغة العربية، وفتح متاجرهم يوم السبت أو إجبار النساء على الزواج من الإسبان، بالرغم من أن قوانين محاكم التفتيش ظلت سارية المفعول حتى نهاية القرن الثامن عشر وهي تلاحق المسلمين (حتامله، 2000: 31).

وبسبب الظلم والتعسف والقهر نظم مسلمو الأندلس ثورة على النظام العسكري الحاكم والذي كان يخضع للسلطة الدينية الكاثوليكية، وبالتالي ثاروا في أكثر من مدينة وقرية خاصة في شمال غرناطة، والبشرات التي تقع شمال شرق غرناطة التي كانت غالبيتها من المسلمين، ضد قوانين التنصير أولاً ومحاكم التفتيش ثانياً، التي كانت تطلق عليهم أسماء مختلفة ومنها " المرتدين والكفرة "وأحياناً الضالين، ومع ذلك لا زالت -حتى إعداد هذا البحث - أسماء العائلات العربية المشهورة خاصة في منطقة البشرات هي ذاتها، فنجد عائلات إسبانية مسيحية باسم عائلة عباد، وعائلة نضال (نادال) وعائلة عمر وسيرجيو وسيرخيو وهم عائلة بنو سراج(المقري، 1968: 295) الذين كانوا أعداء لأبي عبد الله الصغير ودخلوا في حلف مع ملك قشتالة فرناندو، ويعرفون أنهم من الموريسكيين الذين تم تنصيرهم بالقوة، فقد استطاع الجيل الأول والثاني البقاء على دينهم، أما الجيل الثالث في القرن الثامن عشر والتاسع عشر فقد ذاب في المجتمع الإسباني ولم يبق سوى أسماء تلك العائلات العربية التي يحتفظون بها.

ثالثاً: الصراعات الداخلية:

امتازت فترة ولاية أبي الحسن علي بن سعد الناصري عام (871هـ/ 1471م) بالثورات والاضطرابات بين سلاطين المملكة النصرية(الطويل، 1994: 32)، وهي بداية النهاية لسقوط مملكة غرناطة وتعرف اليوم باسم

Granada (Cuello,1996:9) وتوجت تلك الفترة بخلع أبي الحسن لوالده ونفيه إلى مدينة شلوبانية، وهناك رأي آخر أنه تم نفيه إلى مدينة المرية حيث توفي في نهاية عام 868هـ/1464م (حتامله، 2000: 9). بحادثة وكذلك إعلان عبد الله الزغل *El-Zagal*(بمعنى الشجاع) أخ أبي الحسن علي بن سعد صاحب مدينة مالقة (الحميري، 1937: 517) الثورة على أخيه ملك مملكة غرناطة، حيث قام بالاتفاق مع ملك قشتالة (الحميري، 1937: 161) فرناندو دي خوان من أجل محاربة أخية وطمعه بأن يصبح ملكاً على مملكة غرناطة (Arie,1994:370)، وكانت تلك الثورة التي قام بها عبد الله الزغل ليس إلا بتحريض وتخطيط وموافقة فرناندو دي خوان حيث وعد عبد الله الزغل بأن يصبح ملكاً لغرناطة وتحت حمايته، فكانت ردة فعل أبي الحسن أن أرسل جيش المملكة لإخماد الثورة، وبهذا انتقل الصراع من صراعٍ سياسي إلى صراعٍ عسكريٍ وعلني، لذلك لا بد من الاصطدام ما بين أتباع الثورة وبين جيش المملكة في نواحي مالقة، والتي تعرف حالياً باسم *Malaga* (Balbas,1934:60)، وكانت الخطة تقضي بتدخل الجيش القشتالي المرابط في القلاع والحصون بين المدينتين للحيلولة دون وصول جيش أبي الحسن من التقدم والوصول إلى مدينة مالقة لإنهاء الثورة (جودة، 2013: 210).

دام الصراع بين الاخوة من سنة(871هـ/ 1471م) إلى سنة879هـ/1174م، وهذا يعني أن الصراع استمر تقريباً ثلاث سنوات، ونتيجة للجهود التي بذلت للصلح بين الأخوين عقد أبو الحسن معاهدة عدم التدخل في شؤون مدينة مالقة التابعة لعبد الله الزغل وذلك لعدم مقدرة أي من الطرفين الانتصار على الآخر، حيث انغمس أبو الحسن بملذاته وشهواته ولم يعُد خطة استراتيجية للدفاع عن مملكته أمام المخطط الأرغوني القشتالي باستثناء بعض المناوشات الجانبية لحصار بعض المدن مثل مدينة الصخرة والحمة القريبة منها ومهاجمتها(حتاملة، 1977: 17)، كما أهمل أبو الحسن جنده وترك تدريب الجند، في حين على الجانب الشمالي من الجزيرة الإيبرية توفي الملك القشتالي هنري الرابع المؤيد لعبد الله الزغل عام

879هـ/1174م، قبل انتهاء مدة المعاهدة التي استمرت ثلاث سنوات حيث كان أبو الحسن يدفع جزية للملك القشتالي هنري الرابع(حتامله، 1977: 15).

وكان نتيجة لموت الملك هنري أن نصبت على عرش قشتالة ابنته إيزابيل الوريثة الوحيدة للملك هنري الرابع، وفي المقابل كان على عرش مملكة أرغون الملك فرناندو ابن دون خوان الثاني(فرحات، 1981: 57)، ولإنهاء الصراع بين المملكتين حدث زواج المصلحة أو المنفعة بين المملكتين، ويستنتج أن هذا الزواج كان بتخطيط ومباركة رجال الدين الكاثوليك في كلتا المملكتين بأمر من البابوية في روما مباشرة، وكان لهذا الزواج عدة أهداف، ففي المقام الأول إنهاء الصراع بين المملكتين، وثانياً بهدف توحيد الجهود للحرب المقدسة ضد الإسلام والمسلمين في الأندلس، والذي كان يتمثل في آخر مملكة إسلامية في جنوب الأندلس وهي مملكة غرناطة(فرحات، 1981: 57).

لقد تحقق الهدف الأول من الزواج مباشرة، ولكن الهدف الثاني تم تأجيله لفترة لا تتعدى العامين، وذلك نتيجة لانشغالها بحرب على حدود مملكة أرغون وهي حرب البرتغال،(حتامله، 1999: 11) ولكي يتمكن الملكان الزوجان من تحييد الدور الإسلامي في هذه الحرب، عقد الملكان اتفاقية صلح أو هدنة مع أبي الحسن حتى الانتهاء من تلك الحرب، وهنا اقترف الملك أبو الحسن خطأين جسيمين، يتمثل الأول بعقد الهدنة وعدم التحالف مع ملك البرتغال، والخطأ الثاني بأنه لم يعمل على توحيد جبهته الداخلية من خلال تحصين القلاع والمدن المتبقية التي تقع ضمن حدود مملكته وإنهاء حالة الصراع على الحكم، فكان عليه مهاجمة قلاع وحصون مملكة قشتالة وتوسيع حدود مملكته، وبالتالي ولو قام بذلك لوأد مخطط الملكين في انهاء الدولة الإسلامية مائة عام قادمة على الاقل(حتامله، 1957: 12) ، انتظر أبو الحسن انتهاء حرب البرتغال، وكان يأمل على ما يبدو انتصار ملك البرتغال على المملكتين، وهذا لم يحدث، وحدث عكس ما كان يتمناه، حيث وقع أبو الحسن في خطأ استراتيجي، وبالتالي انتظر

حتى انتهاء حرب البرتغال دون أن يفعل شيئاً حتى دون التحالف مع ملك البرتغال لإطالة أمد الحرب أو الدخول فيها(جودة، 2013: 210). وهذا بالطبع يستنزف الجيش القشتالي والأرغوني الموحد لفترة أطول، لكن هذا لم يحصل لسوء الحظ، حيث طغت مشاكل الصراع على ولاية العهد على الأخطار الخارجية التي كانت تنتظر مملكة غرناطة في سنواتها الأخيرة، وكذلك حالة الضعف التي كانت تمر بها دويلات المغرب الإسلامي، وكذلك انشغال الدولة العثمانية بفتوحاتها المختلفة وانشغالها بإنهاء دولة المماليك في مصر والشام، إضافة إلى البعد الجغرافي، وهذه العوامل مجتمعة ساعدت على عدم نجدة الأندلس وسقوط دولة الإسلام هناك.

لم يكتفِ أبو الحسن بم آلت اليه دويلته المتبقية من بلاد الأندلس، وزاد على ذلك بأن تم تفتيت المملكة إلى قسمين قسم شمالي تمثل بمدينة غرناطة تحت إمرة أبي الحسن علي بن سعد الناصري، وقسم جنوبي تحت سيطرة أخية الذي يعرف ب عبد الله الزغل وكان هذا القسم يضم مدينة مالقة وجوارها ونواحيها، ونتيجة لهذا الانقسام والضعف وتعرض المملكة للهجمات والحملات الإسبانية مباشرة بعد انتهاء حرب البرتغال، فكانت بداية نهاية مملكة غرناطة حين تم تقسيمها بين الأخوين(جودة، 2013: 210).وقد عجل هذه الانقسام الأخير من سرعة زوال حكم المسلمين في الأندلس.

بعد انقسام المملكة وانكفاء أبي الحسن في غرناطة، تزوج على زوجته الأولى وهي أبنة عمه ملك غرناطة الأسبق السلطان أبي عبد الله الأيسر أو الأعسر ويعرف بالمصادر الإسبانية باسم *El-Zurdo*، وكان له منها عبد الله محمد الملقب أبو عبد الله الصغير *El-Chiquito*، وأبو الحجاج يوسف، وعائشة، وزوجته الثانية تدعى إيزابيل دي سوليس، ابنة ضابط فرسان بيدمار، سانشو خيمينث دي سوليس والذي يقال أنه قتل في حروبه مع المسلمين، حيث أغار المسلمون على بعض الضياع في نواحي قرطبة وتم أسر بعض الفتيات والغلمان وكان من ضمنهم الفتاة إيزابلا وأحياناً تكتب حسب المراجع التاريخية إيسابيلا التي كان عمرها ثلاثة

عشر عاماً حينذاك، وبيعت في سوق النخاسة في غرناطة، وتم شراؤها من قبل حاشية أو الأسرة الملكية لتخدم في قصر الحمراء في خدمة زوجة أبي الحسن أو ابنته، وبسبب جمالها وفطنتها أعجب بها ملك غرناطة أبو الحسن وكان بمثابة أسير لديها حيث تزوجها، وقد أسلمت وتم تغيير اسمها إلى ثريا، ورزق منها بولدين هما سعد ونصر(مجهول، 1991: 71).

لقد زادت حدة الصراع بين عائشة وثريا في أن يصبح أولادها ملوكاً على مملكة غرناطة، فأخذت الدسائس والمكائد والوشايات تأخذ مكانها، فعائشة كانت ترغب بتولية ولديها عبد الله وأبي الحجاج، وثريا ترغب بتولية ولديها سعد ومن بعده نصر، وكان أبو الحسن ألعوبة بيد ثريا، وكانت النتيجة أن قام أبو الحسن بسجن زوجته الأولى عائشة وولديها في برج قمارش في مدينة الحمراء(المقري، 1968: 514)، وكانت عائشة من قبيلة بني سراج، وتمكنت بمساعدتهم من الهرب وولديها إلى وادي أش(الحميري، 1957: 604) ورداً على ذلك قام أبو الحسن بقتل عدد كبير من زعماء بني سراج الذين ساعدوها على الهروب خاصة العاملين في قصر الحمراء(المقري، 1968: 514)، ونتيجة لاستباحة دماء بني سراج تمرد سكان وقادة الوادي على أبي الحسن وخرجوا عن طاعته، واعتبروه مسؤولاً عن الهزائم والأوضاع المتردية أمام الغزوات والهزائم المتلاحقة مع الممالك المسيحية، ولكن أيقن أبو الحسن ذلك فقام بمحاصرة واسترداد مدينة الصخرة(الحموي، 1984: 395)، واستردها من القشتاليين لكي يثبت عكس ما رأى فيه سكان مملكته، وبالتحديد سكان وادي آش الذي احتمى به أولاده وزوجته عائشة(مجهول، 1991: 10).

ازداد الضغط على أبي الحسن من خلال رفض مملكة قشتالة تجديد الهدنة مع أبي الحسن بدعوى أن أبا الحسن لم يدفع أموالا لقشتالة، ولكن السبب الحقيقي ليس عدم دفع الأموال، ولكن حالة الضعف والاستهزاء بمكانة أبي الحسن عند ملوك قشتالة، فرد أبو الحسن على وفد قشتالة بأن"دار السكة

التي كانت تطبع الدنانير، أصبحت تصنع هذه الرؤوس الحديدية، وتناول رأسًا حديدية وأضاف" من الآن فصاعداً سنختص بصنع هذه لا بالذهب" ونتيجة لموقف أبي الحسن هذا رأت مملكة قشتالة أنه لا مناص من اعطاء أبي الحسن هدنة فجددت الهدنة ثلاث سنوات(حتامله، 1957: 20).

أمام كل هذه التطورات كان لا بد من قيام بعمل ما يثبت لبني سراج ولعموم سكان مملكته أنه يتحكم بزمام الأمور وأنه سلطان الجهاد، وبيده القوة والحزم والقدرة ولكي يقرن الأقوال بالأفعال قام بمهاجمة قلعة الصخرة، على الرغم من اتفاق الهدنة مع الملك فرناندو ملك قشتالة(حتامله، 1975: 12)، فغضب ملك قشتالة وأرسل ماركيز(جودة، 2013: 253) قائد جيشه، فحاصر قلعة الحمة (الحميري، 1957: 200)، وهي قريبة من مدينة غرناطة تقع على ساحل البحر المتوسط، واستطاع الملك فرناندو الانتصار على حامية قلعة الحمة وضرب الحصار عليها سنة 886ه/1481م، وبالتالي قاد أبو الحسن جيشه باتجاه قلعة الحمة لفك الحصار عنها وضرب حصاراً مضاداً(مجهول، 1991: 609)، مما جعل الملك فرناندو يطلب نجدة عسكرية من الأطراف المسيحية المجاورة للقلعة، وعندما علم أبو الحسن بذلك، عاد إلى مدينة غرناطة حتى لا يقع بين فكي كماشة الجيش المحاصر للقلعة، وجيش النجدات القادم من المناطق القريبة لقلعة الحمة(حتامله، 1957: 12)، ثم عاد أبو الحسن لفرض الحصار على جيش فرناندو المحاصر للقلعة، ومرة أخرى عاودت النجدات الإسبانية لضرب الحصار على القلعة، واستطاعت التغلب على جيش أبي الحسن، وهنا حاول أبو الحسن طلب النجدة من ملوك المغرب الإسلامي ولكن نجدات المسيحيين للملك فرناندو حالت دون وصول جيش من بلاد المغرب الإسلامي وسقطت مدينة الحمة، ولم تكتف بذلك بل سارت لحصار مدينة لوشة بعد أشهر قليلة(الحميري، 1957: 156)، وتعرف اليوم باسم *Loja*، وبالتالي عاد أبو الحسن إلى غرناطة في 27 جمادى الأولى سنة 887ه/1482م(حتامله، 1957: 23)، ولم يستطع الجيش

الإسباني النيل من مدينة لوشة لمناعة حاميتها وبسالة قائد حاميتها الشيخ علي العطار حيث قام جيش أبي الحسن بإلحاق هزيمة فادحة بالجيش الإسباني على أسوار مدينة لوشة سنة 887ه/1482م وبقيت ضمن مدن غرناطة.

إذاً أثبت جيش أبي الحسن أنه قادر على الدفاع عن مملكة غرناطة ولو بشكل محدود، ولكن بسبب الصراع والانقسام والثورات الداخلية أنه أصبح غير قادر على مجابهة جيش قشتالة على جبهة واسعة أو حرب شاملة، ليس لقلة عدد جيش أبي الحسن ولكن بسبب الانقسام والصراع والتهاون في الدفاع عن المملكة فأخذت الأوضاع الداخلية في مدينة غرناطة أسوأ حالاً من الظروف الخارجية التي تحيط بها، حيث الصراع على ولاية العرش بين أبنائه وبتحريض من أمهاتهم عائشة وثريا، كذلك أصبح أبو الحسن طاعناً في السن، وأرهقته كثرة الحروب التي يقوم بها الملك فرناندو ضد قلاع وقرى مملكة غرناطة وعدم اتفاقه مع أخيه صاحب مالقة، وخروج سكان القلاع والقرى عن حكم أبي الحسن مهد الطريق لنهاية حكم المملكة(سالم، 1998: 394). كان لأخ أبي الحسن صاحب مالقة دور في نهاية المملكة بشكل مباشر، حيث اتفق مع فرسان وسكان وحاميات القلاع وأبراجها على مبايعته وعدم التقيد بأوامر أبي الحسن، وهذا بالفعل ما حدث، فكان دورها سلبياً أمام الجيوش الإسبانية التي تهاجم مدينة غرناطة.

رابعاً: الحرب الأهلية داخل غرناطة:

في ظل انشغال أبي الحسن بحروبه مع قشتالة وخاصة في لوشة، أعلن أبناء أبي الحسن أبو عبد الله وأبو الحجاج يوسف عودتهما من وآدي آش إلى غرناطة بمساعدة أخوالهم بني سراج، ودخل أبو عبد الله مدينة غرناطة وبايعه الناس وأعلن نفسه ملكاً على مملكة غرناطة، وتمركز أتباع أبو عبد الله في حي البيازين أكبر أرباض مدينة غرناطة(ابن الخطيب، 1975: 459) وفي المقابل كان والده ملك غرناطة يقيم في قصر الحمراء في الجهة المقابلة وهي المقر الرسمي للحكم، وحاول أبو عبد الله المصالحة مع أبيه غير أن جهوده باءت بالفشل، وعليه فقد أعلن

أتباع أبي عبد الله تنصيبه ملكاً على غرناطة، ودعوا أباه بالشيخ على سبيل الاستهزاء، حيث اتهموه بأنه منساق وراء ملذاته مع زوجته الجميلة ثريا، وهذا أدى إلى تراجع قوة الدولة وخسرت الكثير من القرى والقلاع أمام ملك أراغون(مجهول، 1991: 75).

احتدم الصراع العسكري بين أنصار الأب وابنه، وسالت الدماء والقتل في شوارع مدينة غرناطة بين الطرفين، وهذا الحدث استغله الملك فرناندو وهاجم أطراف المملكة مستغلاً انشغال الطرفين في الصراع فيما بينهما(الطحاوي، 2003: 273)، فتدخل شيوخ وفقهاء وأعيان المدينة للإصلاح بين الطرفين، وحصل الصلح بينهما، واتحد الأب وابنه في مواجهة هجمات الملك فرناندو، حيث خرج أبو الحسن بجيش غرناطة إلى مدينة لوشة لفك الحصار وانقاذ حاميتها، وبقي أبو عبد الله في غرناطة للدفاع عنها، واستطاع أبو الحسن مع قائد حاميتها علي العطار سنة 887ه/1482م من فك الحصار عنها وقتل قائد الجيش الإسباني المحاصر لها وتمكن من تشتيت وقتل عدد كبير منهم، وبعد هذا الانتصار اتجه لفك الحصار عن قلعة الحمة، ولكنه لم يستطع بسبب حصانتها، فضلاً عن أنه خاض معركة الحمة وقفل عائداً إلى مدينة غرناطة (حتامله، 1957: 23).

لم يتمكن أبو الحسن من دخول مدينة غرناطة وقصر الحمراء وأقفلت المدينة أبوابها في وجهه، بسبب نقض ابنه الاتفاق الذي تم بينهما، وسار أبو الحسن إلى مدينة مالقة التي كانت تحت حكم أخيه عبد الله الزغل وأقام عنده، ومع ذلك بقيت مالقة وأجزاء من المناطق الغربية تحت إمرة أبي الحسن بقيادة أخيه الزغل الذي استقل بمالقة وقائد جيشة بينغيش *Venegas*، ولا يعرف على وجه الدقة أصل قائده إذا كان من البربر أو من المولدين، وربما أشار عليه القيام ببعض الغزوات لكي يرتفع شأنه ويصبح مكان ابنه العاق، فقام أخوه الزغل بعدة غزوات، حيث قام بالتصدي للإسبان الذين قدموا إلى قرى بلش(مجهول، 1991: 11)، وشرقية، ومالقة، فانتصر عليهم، وتحقق ما خطط أبو الحسن لأخيه الزغل

وحتى لا يكون شعبية لابنه أبي عبد الله الصغير، وهذا الأمر حرك مشاعر أبي عبد الله، فقام بخطوة استعراضية مماثلة سنة888ه/ 1483م نحو لشانة ولكن دون إعداد وتخطيط وجيش مدرب (مجهول، 1991: 12)، وضرب الحصار عليها، غير أنه قفل عائداً إلى غرناطة ولم يحقق أي شيء وذلك لكون جيشه من عامة الناس على الأغلب، وفي طريق العودة تتبعه قائد الجيش الإسباني رودريجو وقتل عدداً من جيشه وتم أسر أبي عبد الله الصغير(مجهول، 1991: 75).

عاد أبو الحسن بعد وقوع ابنه في الأسر إلى غرناطة، فأصبحت الفرصة سانحة لأبيه أبي الحسن المقيم في مدينة مالقة بالعودة بجيشه الذي فك به الحصار عن مدينة لوشة إلى غرناطة، وصعد قصر الحمراء مرة أخرى، وفي المقابل فتحت زوجة أبي الحسن عائشة قنوات سرية مع الملك فرناندو من أجل إطلاق سراح ابنها من الأسر، دون علم أبي الحسن زوجها، مقابل دفع فدية مالية قدرها 11 ألف دوبلة(جودة، 2013: 253) ذهب كشرط أول، ويقال أنها عرضت أن يكون أبو عبد الله ومملكة غرناطة تحت سيادة وطوع مملكة قشتالة، تطبق قوانينها وتأتمر بأمرها(حتامله، 1977: 37).

أن المتتبع للأحداث التاريخية يستنتج أن زواج أبي الحسن من ثريا، وحقد عائشة عليه جعل الأخيرة تتآمر على زوجها بإبرام الاتفاقيات السرية مع ملوك قشتالة وذلك انتقاماً من أبي الحسن أولا لزواجه عليها، ولقتل أفراد عائلتها بنو سراج الذين ساعدوها على الهرب من محبسها في قصر الحمراء، وفي المقام الثالث لإخراج ابنها من الأسر.

هذا ما كان يخطط له الملك فرناندو فوافق على عرض عائشة زوجة أبي الحسن، لكي يتمكن من سرعة انهاء الدولة المريضة المليئة بالصراعات والمنازعات العائلية على حكم غرناطة وبالتالي أراد إنهاك مملكة غرناطة أكثر من خلال صراع أهلها فيما بينهم حتى الرمق الأخير دون الحاجة لقتل جنوده وإرسالهم لمنازلة قلاعها، وبالتالي فالحرب الأهلية تنوب عنه، فتم إطلاق سراح أبي

عبد الله مع الاتفاق السري بين عائشة والملك فرناندو على التسليم وخضوع غرناطة لمملكة قشتالة، وبدأت فعلياً مراسيم الطاعة والولاء من قبل أبي عبد الله للملك فرناندو أثناء إطلاق سراحه حيث قدم له الولاء والطاعة كبقية الرعايا، ورافقته فرقة عسكرية إلى حدود مملكة غرناطة(مجهول، 1991:86).

تضمن الاتفاق السري أن يقوم أبو عبد الله بمنازلة أبيه وطرده من قصر الحمراء، ومرة أخرى وقع أبو الحسن في خطئه القاتل وهو منازلة ابنه وعدم العودة إلى مالقة للمرة الثانية دون أن يعلم باتفاقه مع ملك قشتالة، وحشد الابن أتباعه في قصر غرناطة في حي البيازين، ومن الجدير ذكره أن قصر غرناطة كان يعرف بقصبة غرناطة وهو يختلف عن قصر الحمراء، بينما حشد أبو الحسن أتباعه في قصر الحمراء، ومرة أخرى سالت دماء الغرناطيين في سبيل مناصرة الأب وابنه، ولكثرة القتل والاضطرابات بين الناس، تقدم سادة وفقهاء وعلماء غرناطة ونصبوا عبد الله الزغل ملكاً على غرناطة بديلاً عن أبي الحسن وابنه أبي عبد الله الصغير، وقد وافق أبو الحسن على تنصيب أخيه الزغل وبارك له ذلك (عنان، 1962: 204) وانتقل أبو الحسن إلى مدينة المنكب وقلعتها (Gracia,2000:125) ، وذلك بعد أن بارك لأخيه سلطانه على مملكة غرناطة، وظل فيها حتى توفي سنة 890هـ/1485م، وبهذا طويت صفحة أبي الحسن وصراعه مع ابنه أبي عبد الله الصغير بعد أن انهك المملكة في صراعة مع أخيه الزغل أولاً وابنه أبي عبد الله الصغير ثانياً (مجهول، 1991: 86).

-صراع العم عبد الله الزغل مع أبن أخيه أبو عبد الله الصغير:

كان هناك مشروع سري يقوده أبو عبد الله الصغير وأمه عائشة مع الملك فرناندو ينص على أن تكون مملكة غرناطة ولاية من ولايات مملكة قشتالة، وفي المقابل مشروع عمه الزغل ملك مملكة غرناطة آنذاك في البقاء خارج ولاء مملكة قشتالة وتدعيم قلاعه وتقوية الجيش الإسلامي للدفاع عن آخر الممالك الإسلامية هناك، وبتسلم عبد الله الزغل مقاليد الحكم السياسي في مملكة غرناطة يعرقل

تنفيذ الاتفاق بين عائشة وفرناندو، وهنا فإن تنصيب الزغل ملكاً على غرناطة لا يروق لملك قشتالة حيث جلس على عرش غرناطة كملك منتخب 889ه/1484م، بينما هذا الأمر لم يرق لأبي عبد الله الصغير وبسبب ذلك أقام أبو عبد الله الصغير في قصر البيازين وسط أنصاره وأتباعه، وأخذ أبو عبد الله الصغير كعادته بالدسائس والطعن في عمه وسلوكه، فعرض عبد الله الزغل على ابن أخيه تقاسم إدارة أمور المملكة مناصفةً، وعلى أن يبق كل منهما في قصره، الأول في قصر الحمراء والثاني في قصر البيازين(حتامله 1975: 16)، وتظاهر أبوعبد الله بقبول عرض تقاسم السلطة مع عمه، وكان يضمر الاستيلاء على مقاليد الحكم بمفرده، واتصل أبو عبد الله الصغير يطلب العون من الملك فرناندو لمساعدته في التفرد بمقاليد الحكم في المملكة، وللأمر ذاته اتصل عبد الله الزعل بوالي قادش وابن أخيه والي المرية وتوالت المناشدات والاتصالات من كلا الطرفين كمقدمة للصدام العسكري بين الطرفين(مجهول، 1991: 97).

كان أبو عبد الله وعمه في خضم صراعهما، وفي المقابل أخذ الملك فرناندو يستولي على المدن والقلاع الإسلامية التابعة لمملكة غرناطة، فأخضع مدينة رنده(علاونه، 17،2003)، وبالتالي أخذت مملكة غرناطة بالتقلص من الناحية الجغرافية، وفي ظل سقوط المدن الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، أيقن عبد الله الزغل وابن أخيه خطورة انقسامهما على نظام عرشيهما وعلى المملكة بشكل عام، فاتحدا من جديد عام 891ه/ 1486م، وكان الجيش الإسباني يحاصر لوش *Loja* وتقدم أبو عبد الله لنجدتها، بينما تقدم عبد الله الزغل لنجدة مدينة بلش، وهنا على ما يبدو فالاتفاق لم يكن بينهما عن تراض تام، فبدلاً من سير الاثنين نحو مدينة واحدة، اتجه كل واحد لمدينة بمكانين مختلفين(جودة، 2013: 215). ربما لإثبات قوتهما منفردين لأهل غرناطة، وهذا أيضاً كان من الأخطاء الاستراتيجية الأخيرة فيما بينهما.

لا نعرف على وجه الدقة لماذا اتجه كل سلطان أو ملك إلى مدينة بدلاً من توحيد جيشيهما أمام الجيش القشتالي، هل هذه كانت خطة أبو عبد الله مع ملك قشتالة، أم سوء تخطيط وربما أراد كل منهما تحقيق انجاز دعائي للظفر بالسطلة منفرداً.

غضب الملك فرناندو من أبي عبد الله الصغير، حيث كان أبنه رهينةً عند الملك فدريناندو حسب الاتفاق السري بينهما، ليكون خاضعاً للملك الإسباني، وهذا ما جعل أبا عبد الله يعتذر للملك فرناندو، وقام بتسليم حصن لورا *Lora* (Cuello,2003:17) وحصن الموكلين (Maural,1971:155) نظير مهاجمته مدينة لوشة (علاونه، 2003، 319).

يتضح مرة أخرى أن أبا عبد الله كان يخطط للتخلص من عمة الزغل وذلك لكون ابنه رهينة لملك قشتالة، وبالتالي فكان نتيجة صراعهما الداخلي انهاك جيش المملكة وعجزت عن تحقيق ما خرج له . فطلب الزغل من المغرب الإسلامي ومصر، وتونس، وفاس المساندة وتقديم يد العون، ولكن هذه الدول كانت منشغلة بمشاكلها وصراعاتها الداخلية، عندها أيقن الزغل أنه لا مفر من الاعتماد على الذات والجهاد حتى النهاية، وبكل قوة حاصر مدينة بلش التي

سرعان ما استسلمت حاميتها حيث أرسل سكانها وفداً ليعلنوا ولاءهم للملك فرناندو والتي تبلغ ما يقارب خمسمائة قرية إسلامية لا زالت أسماء قراها كما كانت في فترة الدولة الإسلامية(مجهول، 1991: 94).

عاد عبد الله الزغل إلى غرناطة وفشل في فك حصار مدينة بلش، ولكن أقفل أبو عبد الله الصغير أبوابها أمام ما تبقى من جيش عبد الله الزغل، وسار نحو مدينة قادش (Maural,1971:155) لا يستطيع عمل شيء مؤثر، وبالتالي كان هذا الانقسام الأخير بمثابة المسمار الأخير في نعش المملكة، وانقسمت المملكة قسمين، وسقطت نتيجة لهذا الانقسام مدينة مالقة بيد الإسبان في 27 شعبان سنة 892هـ/ 18 اغسطس 1487م، واستباح الإسبان المدينة وقبضوا على المسيحيين واليهود الذين هربوا إلى المسلمين من قبل، وقدموا لمحاكم التفتيش(الحسن، 2010: 401) وأحرقوا باحتفال رسمي بعد أن أدينوا بأنهم مارقون كفرة(Maural,1971:155).

استولى الإسبان على مدينة موشقرة ،في العام التالي 893هـ/1488م ثم حاصروا قلعة طبرنة، فتصدى لهم عبد الله الزغل ومنعهم من السيطرة عليها، فانتقل الجيش الإسباني إلى مرسية (الحموي، 1984: 107)، وقد استمرت المعارك عام 894هـ/ 1489م حسب خطط الملك فرناندو لإنهاء الوجود الإسلامي في الأندلس، حيث تم محاصرة مدينة البيضاء حتى استسلمت، وتم الاستيلاء في العام نفسه على كافة الحصون التي كانت تابعة لعبد الله الزغل دون مقاومة، وقد وقّع الزغل اتفاقية صلح يتم بموجبها تسليم قادش والمرية وسائر بلاده للملك فرناندو وانتقل إلى البشرات(حتامله، 1975، 19).

رحل ما تبقى من جيش الزغل إلى غرناطة تحت قيادة أبي عبد الله الصغير، ظناً منهم أنهم في مأمن وأنهم سيدافعون عن مملكة غرناطة، ولكن أبا عبد الله كان خاضعاً للملك فرناندو، وقام أبو عبد الله من أجل تحسين شروط استسلام

مملكته بالسيطرة على قلعة همذان، سار إلى حصن شلوبنية فساعدته قوات الجيش الإسلامي التي غادرت المرية إثر اتفاق الزغل مع الملك فرناندو(الصلابي، 2007، 194).

طلب الملك فرناندو من أبي عبد الله الصغير تسليم غرناطة، وذلك حسب الاتفاق الذي وقع بينهما والذي ينص على: " أنه عندما يقوم الزغل بتسليم مدنه وحصونه عليه تسليم غرناطة والدخول في طاعته"، ولكن أبا عبد الله الصغير نقض الاتفاقية، ورفض تسليم المدينة، اقتصر تسليم الزغل لكافة مدنه وحصونه سلماً على الملك فرناندو وسهل له الطريق، حيث سّبب هذا التسليم لمدينتي قادش والمرية وأربعمائة قرية ضربة قاسية ساعدت على انهيار معنويات الجيش الإسلامي في غرناطة، واعتبرت هذه الخطوة انتقاماً من الزغل لأبي عبد الله الصغير على إقفال أبواب غرناطة بوجهه بعد معركة مدينة بلش(الصلابي، 2007: 194).

علم عامة الناس بأمر الاتفاقية السرية بين أبي عبد الله والملك فرناندو وأن هذا الأخير يطالبه بتسليم المدينة، فاضطرب سكانها، واتهموا أبا عبد الله بالتقاعس وأنه سبب هزيمة وانهيار المملكة بسبب صراعاته على ولاية العرش تارة مع عمه وأخرى مع أبيه، واضطر أن يطلب من الملك فرناندو أن يؤجل تسليم المدينة، فرفض الملك طلبه وغضب منه، وسارت الجيوش الإسبانية صوب غرناطة والتقت قوات الملك فرناندو التي كان يقودها الكونت تانديلا مع قوات أبي عبد الله الصغير، وانتصر أبو عبد الله عليها، وقرر بعد هذا الانتصار الجهاد والقتال حتى النهاية، وفي خضم هذه المعركة كان الملك فرناندو يحارب الملك الفرنسي على الجبهة الفرنسية في الشمال(جودة، 2013: 219).

لم يستغل أبو عبد الله الصغير الحرب بين الملك فرناندو مع ملك فرنسا، ووقع في الخطأ ذاته الذي سبق أن وقع فيه أبوه أبو الحسن عندما كان الملك فرناندو يحارب ملك البرتغال وظل ساكناً دون استغلال تلك الفترة لتقوية وتحصين

نفسه والقيام بعقد تحالفات ضد الملك فرناندو، وبالتالي فإن الأب وابنه فيما بعد وقعا في الخطأ نفسه مما انعكس سلباً على مملكة غرناطة.

أمام هزيمة القوات الإسبانية من قبل أبي عبد الله الصغير وتورط الملك فرناندو بحرب في فرنسا، طلب من أبي عبد الله تسليم مدينة قادش وبعض المواقع المجاورة، على أن يقدم الملك فرناندو لأبي عبد الله نظير ذلك وحدات قشتالية ترابط في حي البيازين لتساعد على ضبط النظام والأمن(عنان، 1962: 108)، ورفض أبو عبد الله الصغير طلب الملك فرناندو واستولى على قلعة البذول، وعنها خرج الملك فرناندو بنفسه من اشبيلية في قواته القشتالية ودون أن ينتظر قوات النجدات من أطراف المدينة قاصداً مملكة غرناطة ولحق به قائد قوات الحدود الإسبانية تانديلا ووصل فرناندو قلعة موكلين، وطلب من عبد الله الزغل موافاته بجيشه فلبى نداء الملك ومعه يحيى أخ عبد الله الصغير، وطلب منهما السير معه لقتال أبي عبد الله الصغير في غرناطة فساروا معه(عنان، 1962: 234).

إن الصراع التاريخي بين عبد الله الزغل وأبي عبد الله الصغير من جهة، والمعاهدة التي دخل الزغل فيها ضمن طاعة الملك فرناندو، هي التي أجبرت الزغل على الموافقة في دخوله الحرب ضد ابن أخيه، فانتقل الزغل في صراع تاريخي مع أبي عبد الله .وأخيه يحيى أيضاً كان يرى أن أخاه مغتصب للملك وكان سبباً في ضياع المملكة، وقد يكون الملك فرناندو هدّدهما بمصادرة كل ما حصلوا عليه مقابل تسليمهم مدنهم وصادراتها اذا لم يوافقوا على موافاته ضد أبي عبد الله الصغير، وقعت المعركة في مرج غرناطة ولكن أبا عبد الله الصغير نازلهما وانتصر عليهما، وعاد الملك فرناندو إلى حصن الموكلين (مجهول، 1991: 105). ونتيجة لهذه المعركة سار أبو عبد الله الصغير إلى قلعة همذان وهدمها، وإلى حصن شلوبنية للسيطرة عليه ووصلت قوات المرية وأعلنت طاعتها له.

السؤال الذي يطرح نفسه ما الذي غير رأي أبي عبد الله ورفضة تسليم غرناطة؟ وهو الذي أوصل الأمور لهذا الحد نتيجة لصراعه مع أبيه أولاً ومع عمه

ثانياً، إن السبب الحقيقي ليس يقظة ضمير أبي عبد الله وايقانه بالأخطاء التي وقع فيها، لقد أصبحت غرناطة في آخر سنتين قبل سقوطها، وبعد تسليم الزغل لمدينة قادش والمرية، رحل غالبية سكان تلك القرى والمدن إلى غرناطة، فأصبحت تعج بالجنود والشباب والمقاتلين والمتحمسين للدفاع عن آخر مدينة إسلامية وهذا ما ساعد وشد عضد الملك أبي عبد الله، ورفضه تسليم المملكة على الرغم من اتفاقه مع الملك فرناندو.

عاد الملك فرناندو إلى موكلين لكي يحضر جيشاً مهمته الرئيسة الاستيلاء على غرناطة، فتوجه الملك فرناندو ترافقه الملكة إيزابيلا وعبد الله الزغل، وأخوه أبو عبد الله يحيى، فتوجه الزغل إلى محاصرة قلعة لانجرون، فعجز عن فك حصارها. وبسبب التقصير تنازل للملك فرناندو عن جميع أملاكه، ونفي إلى عدوة وهران(الحموي، 1984، 385)، وفي روايات أخرى طلب الملك فرناندو من عبد الله الزغل الهجرة من إسبانيا، وقام الأخير بتجريده من كل ما يملك في ربيع الأول سنة 895هـ، 1491م (العاوور، 1997: 661)، أما يحيى فقد أرسل لمحاصرة غذرا وسيطر على المرية من يد أخيه أبي عبد الله، وأما أبو عبد الله فقد أصبح وحيداً أمام ثلاثين ألف مقاتل إسباني يحاصرون المدينة، على الرغم من وجود مئات الآلاف التي تستطيع المقاومة والانتصار، ولكن روح الهزيمة والصراع واليأس الذي زرعه حقد عامة الناس على أبي عبد الله جعلهم والجيش يتقاعسون عن الدفاع عن المدينة، وميوعة أبي عبد الله ورغبته في الاستسلام والدخول في طاعة الملك فرناندو وإنقاذ ابنه من الأسر، جعلته يهرول لعقد المعاهدة السرية العلنية لتسليم غرناطة.

خامساً: الفوضى وتسليم غرناطة:

1. اشتداد الجوع، وغلاء الأسعار، وانتشار الفوضى داخل غرناطة، مع اشتداد وطأة الحصار القشتالي للمدينة.

2. يأس الشعب وقنوطه من امكانية فك الحصار، بعد أن بنى الملك فرناندو مدينة (سانت في) لتكون مقراً له ولحاشيته، مما غرس اليأس في النفوس، من امكانية فك الحصار وأوحى إليها بأنه لن يغادر الحصار قبل استسلام المدينة.

3. قناعة القيادة العليا وبخاصة السلطان وحاشيته بعدم القدرة على المقاومة وميلهم إلى إجراء مفاوضات الاستسلام.

4. إن السبب الرئيس هو أن خلافات سلاطين بني الأحمر المتأخرين وبخاصة ممن أشعلوا نار الحرب الأهلية أمثال أبي عبد الله الزغل، وأبي عبد الله الصغير، قد خلقت جواً من الضعف والخور، وجعلت فرناندو الطامع في إخراج المسلمين من الأندلس يثابر على تحقيق مشروعه بشتى الطرق المتاحة، وبالتالي وصل الشعب إلى القناعة التامة بعجزه عن مواصلة القتال، ولا يملك سوى تحسين شروط الاستسلام.

5. ميوعة موقف أبي عبد الله وتهاونه في الوقوف أمام الزحف النصراني، جعل الشعب المسلوب عاجزاً عن المقاومة، مما أتاح لأبي عبد الله فرصة التحرك السلبي والاستسلام(عنان، 1962، 244).

نصت المعاهدة العلنية على وجوب القيام بمراسيم علنية لتسليم مدينة غرناطة وتضمن البند الأول تعهد ملك غرناطة والوجهاء والفقهاء بتسليم المدينة(الأندلسي، 1980 :178)، تبدأ بإطلاق المدفعية القشتالية ثلاث طلقات من الحمراء، وهي بمثابة بدء إعلان مراسيم التسليم، ثم بعد ذلك يتقدم ثلاثة آلاف جندي قشتالي برئاسة مطران إسبانيا الأكبر بيدرو دي ماندريسا (Bedro de Mandersa) وهو من سكان سانتافي *Santafe* المعسكر المقدس الذي أسسه فرناندو قبيل سقوط غرناطة، ومعهم سرية من الفرسان، ونص الاتفاق أيضاً على عدم اختراق الجيش القشتالي شوارع غرناطة، بل يدخل قصر الحمراء دون المرور من شوارع المدينة، وسار جيش قشتالة من الضاحية الجنوبية لمدينة غرناطة، وهي أرميليا التي لا زالت تعرف بهذا الاسم *Armelia*، ثم عبروا نهر شنيل، ودخلوا مباشرة إلى مدينة الحمراء(جودة، 2010: 480).

بينما انتظر الملك فرناندو مع فرقة عسكرية على ضفاف نهر شنيل يراقب خروج أبي عبد الله وحاشيته من الحمراء، تقدمت السرية القشتالية الحمراء وطلبت من أبي عبد الله تسليم غرناطة من قبل حيث فعل وخرج من باب الطباق السبعة *Puerta de los siete suelos*، وأثناء خروجه توجه إليه قائد الفرقة الإسبانية وقال له العبارة الآتية *" Eso es lo que era, pero a causa de los pecados de los musulmanes"* هذا ما كان ليحدث لولا خطايا المسلمين" فعرج على ضفة شنيل حسب الاتفاق والتقى الملك فرناندو(Cruz,1992:235).

بقي في القصور الملكية (قصور الحمراء) ابن كماشة وقام بتسليم الحمراء، وتوجه أبوعبد الله إلى معسكر سانتافي *Santafe*، وعرج على ضفة نهر شنيل حيث الملك فرناندو ينتظره لتسليم مفاتيح رمزية كخطوة رمزية، ففعل ذلك، ثم توجه إلى المعسكر حيث توجد الملكة إيزابيلا ويوجد ابن أبي عبد الله الأسير، وتسلمه وطلب منه التوجه إلى البشرات حسب الاتفاق، وأثناء سيره نحو البشرات قبيل المساء، صعد إلى آخر تلة مقابل قصور الحمراء، ولا زالت هذه التلة تعرف باسم تلة زفرة المورو(*Suspiro de Moro*)(Nancy,1994:53)، وعندما زفر على تلك التلة قالت له والدته العبارة الشهيرة" إبك كالنساء على مُلك أضعته لم تستطع أن تحافظ عليه كالرجال"(Bosch,1984:181).

أقام الملك الذي تم إقصاؤه مدة عام في البشرات، في ظل سياسة التسامح في بداية الشهور الأولى من إنهاء الإسلام ودولة المسلمين بالأندلس، وقبل انتهاء عامه الأول، قام ببيع جميع أملاكه كما تنص المعاهدة السرية للملك فرناندو بواحد وعشرين ألف جنيه قشتالي(عمران، 2011: 307)، وهاجر إلى مدينة فاس سنة 897هـ/ 1493م وأقام في ظل السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ حتى مات سنة 940هـ/1534م(جودة، 2010: 480).

في نهاية المطاف وبعد سقوط المملكة أيقن الأندلسيون استحالة وصول النجدات لحماية مملكتهم والصراع الذي أدى إلى نهاية حلمهم وحياتهم، أنه لا بد

من حماية وحفظ تراثهم اللغوي والفكري والديني، على الرغم من محاكم التفتيش ومراسيم الإضطهاد التي صدرت بحقهم، فلذلك دفعوا الأموال في سبيل فتح متاجرهم يوم الأحد، وقدموا الرشاوي من أجل لباسهم ولكن كل ما عملوه لم يفلح أمام آلة البطش والتنصير وذاب الشعب الأندلسي ولم يتبق منه الآن إلا أسماء عائلاتهم.

نتائج الدراسة:

توصل الباحث إلى أن هناك صورة نمطية في دولة الخلافة الإسلامية في الأندلس في نظام الحكم السياسي والتركيبة العائلية والفوضى والصراع الذي كان ملازماً بشكل حتمي لولاية العهد أو السلطة السياسية، وما يرافقه من بذخ وانحلال الملوك والسلاطين والذي كان يؤدي بهم دائماً إلى الصراع السياسي أولاً، والانهيار الاجتماعي والأخلاقي ثانياً من خلال تعدد الزوجات، وما يرافقه من صراع وسطوة النساء الجدد أو الجميلات، وتلك السطوة أدت إلى تدخلهن في الحكم في توريث أبنائهن، ويبدأ الصراع والتحزب من غواية الناس بالمال، لا بسبب اقتناعهم بأمير أو بملك على آخر، ويذهب دائماً ضحية الصراع عامة الناس والدولة بشكل عام.

أما على الجانب الآخر فلم يكن الأمر بأقل أهمية، فقد كان جل اهتمام الملكين الكاثوليكيين التخلص من الشعب الأندلسي بشكل عام، حيث مورست شتى أنواع القهر والحرق والتعذيب والنفي لمسلمي الأندلس، ونتيجة لذلك قام مسلمو الأندلس والذين عرفوا باسم الموريسكيين ثورة البيازين سنة 905هـ/1499م، وثورة الجبال عام 907هـ/ 1501م، وثورة الجبل الأحمر سنة907هـ /1501م، وزاد قمع وتعذيب الملوك الإسبان بعد محاكم التفتيش التي قضت بعدم الختان وعدم تكلم اللغة العربية واللباس العربي وأكل لحم الخنزير وشرب الخمر أمام عامة الناس وغيرها من الإجراءات التي كانت تطبق على مسلمي الأندلس.

إن من نتائج الدراسة وصول الشعب الأندلسي إلى قناعة حتمية وهي المحافظة على ثقافتهم ودينهم ونقله إلى أحفادهم فيما بعد نتيجة لتخاذل العالم الإسلامي عن حمايتهم، وبالتالي أوجدوا المساجد البيتية السرية واخترعوا لغة الألخيمادو لكتابة دينهم وسنتهم وشريعتهم وشعرهم وأدبهم بعيداً عن محاكم التفتيش.

تبين من خلال زيارة القلاع التي وردت في الدراسة من قبل الباحث أن مساجد القلاع حولت إلى كنائس حيث لا زالت مآذن المساجد تعلوها الأجراس، ومحاريبها حولت إلى كوات للكتب في بعض القلاع، أما تراثهم اللغوي فهو لا زال على رفوف المكتبات في الجامعات الاسبانية والأديرة، كما يستنتج أن أسماء القرى والقلاع لا زالت تحتفظ بأسمائها العربية ولم تتغير، ولكن تم تغيير معالمها بأن تم تحويل جميع المساجد إلى كنائس، حيث مسجد قلعة موكلين لا زال النص التأسيسي للمسجد داخل الكنيسة، وهذا ينسحب على غالبية مساجد ومدارس وزوايا غرناطة، ولا زالت آيات القرآن والزخرفة والكتابات التي تعلو بوابات قصر الحمراء تحتفظ باللوحات التأسيسية على مداخلها مثل باب الشريعة والطباق السبعة والسلاح، وكذلك بوابات غرناطة مثل باب البيرة والرملة وغيرها شاهدا على التاريخ الإسلامي في غرناطة.

لقد شكل سقوط غرناطة عبرة ودروساً للعالم العربي والإسلامي على مر التاريخ، فلا زالت الدول والجماعات تتزاحم على الانفصال والانقسام في التاريخ الحديث والمعاصر، فنتيجة الانقسام حتميتها الدمار على الشعوب أولاً والبلاد والعمران ثانياً، لماذا لم يتعظ العرب والمسلمون من دورس انقسام غرناطة وما آلت اليه أخوال الأندلس شعباً وحضارة وثقافة ولغةٍ.

قائمة المصادر والمراجع:

• المصادر والمراجع العربية:

-الأندلسي، الشيخ ابو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي(1980):**تاريخ قضاة الأندلس**، ط1، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، بيروت، دار الآفاق الجديدة.

-ابن بلقين، الأمير عبد الله(1997) **كتاب التبيان**، ط1، منشورات عكاظ.

-جوده، صادق(2013) **تاريخ المغرب والأندلس**، ط1، عمان، منشورات جامعة القدس المفتوحة

- حتاملة، محمد عبده (1977م): **محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة**،ط1، عمان، مطابع دار الشعب.

-حتامله، محمد عبده (1999) **موسوعة الديار الأندلسية**، ط1، عمان، الأردن.

-حتامله، محمد عبده. (1975)، **آل ابي الحسن علي بعد سقوط غرناطة**، مجلة دراسات، الجامعة الأردنية، مجلد2، عدد2، عمان

- الحسن، عيسى (2010م) **الأندلس في ظل الإسلام**، ط 1، عمان، الأهلية للنشر والتوزيع.

-الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت 900هـ/ 1495م) (1057): **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق احسان عباس، ط1، بيروت.

-الحميري، محمد بن عبد المنعم(900ه/1495م)(1937): **صفة جزيرة الأندلس**، القاهرة، تحقيق ليفي بروفنسال.

-ابن الخطيب، لسان الدين(ت776هـ/ 1374م).(1975): **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج1، ط1، مكتبة الخانجي القاهرة.

-ابن الخطيب، لسان الدين(ت776هـ/ 1374م).(1980م): **اللمحة البدرية في تاريخ الدولة الناصرية**، دار الآفاق الجديدة، ط3، بيروت.

-ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد.(2001): **مقدمة ابن خلدون**، اعتناء ودراسة أحمد الزعبي، دار الأرقم، بيروت.

-سالم، عبد العزيز(1998م): **في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس**، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة.

-ابن سعيد الأندلسي (1953) **المغرب في حلى المغرب**، بيروت، دار الكتب العلمية

-الصلابي، علي (2007م) : **دولة الموحدين**،ط1، بيروت، المكتبة العصرية .

- الطحاوي، حاتم عبد الرحمن(2003 م): **دراسات في تاريخ العصور الوسطى**،ط1، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية

-الطويل، مريم قاسم.(1994م): **مملكة غرناطة**،ط1، بيروت -لبنان، دار الكتب العلمية.

-العاوور، صلاح وأخرون(1997) **محاضرات في تاريخ الدويلات الإسلامية**،ط1، غزة، مكتبة المنارة.

- علاونة، شامخ.(2003) **القلاع الإسلامية شمال مملكة غرناطة**، رسالة دكتوراه، جامعة غرناطة، غير منشورة.

- عمران، محمد سعيد(2011) **النقود في أوروبا في العصور الوسطى**، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية.

- عنان، محمد عبد الله(1962 م) **الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال**، القاهرة، مؤسسة الخانجي.

- فرحات، يوسف شكري(1981م) **غرناطة في ظل بني الأحمر**.ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

-مجهول(1991 م): **أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر**، ترجمة وتحقيق حسين مؤنس، القاهرة، دار الزهراء للإعلام العربي.

-المقري، شهاب الدين(ت1041ه/1631م)(1968م): **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر.

-ياقوت الحموي: (1984) **معجم البدان**،ج5،بيروت، دار صادر.

- **المراجع الأجنبية:**

- Arie, Rachel, (1994):***Historia del la espana musulmana***, Madrid
- Balbás, Torres (1934: *Ciudades Hispanomusulmanas*. Vol. II, Madrid
- Comley and Robert Scholes, Nancy R., ***Hemingway's Genders Rereading the Hemingway Text***. New Haven: Yale UP, 199
- Cuello, Antonio Malpica (2003): ***Illora Una Villa de la Frontera Granadina-Castellana***, Universidad de Granada
- De Plaza, Mikel (1992) ***los Moriscus santes y despues de la explosion mardid***>
- Delgado, Cristobal Torres.(1974): ***El Rieno Nazari de Granada***, Granada.
- Gracia, Adela,Fabregas (2000): ***produccion y Comercia de azucar en el Mediteraneo Medieval de Granada***.
- Mihuel, Cruz, Hernandez, (1992***) El Islam de Al-Andalus***, Madrid.
Vila, Jacinto, Bosch (1984) ***Cuadernos de Historia del Islam***, Granada